سـقوط مدينة بابل على عهدالملـك نبونائيد آخرملوك الدولة البابلية الحديثة:

دراسة في عوامل الأنهيار

أ.د.ابتهال عادل ابراهيم الطائي*

* تمهيد تأريخي:

شهدت بلاد وادي الرافدين في أواخر الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد تغيرات سـكانية كبيرة تمثلت بدخول العديد من القبائل الآرامية اليها وأسـتقرارها فيها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد أستطاعت بعض هذه القبائل تأسيس امارات مستقلة أخـذت مع الزمن تنافس الممالك الأخرى الموجودة سـابقا في جنوب بلاد وادي الرافدين، فاستقرت بعض القبائل الآرامية والتي عرفت بقبيلة كلدو[١]

والتي خضعت في أول أمرها لنفوذ الدولة الآشـورية ولكن بعد ضعف الوجود الآشـوري اسـتغل هذ الضعف نبوبلاصر(٦٢٦-٦١٥ق.م) زعيم هذه القبيلة فأستولى على السلطة هناك ونصب نفسه بشكل رسمي في بابل عام (٦٢٥ق.م) ومع مرور الزمن وطد سلطته في كل أنحـاء البلاد ثم أسـهم في التحالف مع الملك الميدي كي أخسـار(٦٢٥-٥٨٥ق.م) في الأجهاز على ما تبقى من الدولة الآشـورية وأحتلال العاصمة نينوى عام (٦١٢ق.م) ثم حران آخر المعاقل الآشورية عام (٦١٠ق.م) وأسس بذلك سلالة جديدة حكمت بلاد بابل وسـيطرت على معظم البلـدان والأقاليم التي كانت تابعة للآشـوريين لمدة تناهز القرن وعرفت في المصادر التاريخية بأسم المملكة البابلية الحديثة أو المملكة الكلدية.[٢]

* جامعة الموصل/ كلية التربية/ قسم التاريخ

تمثل آخر عهود الحكم الوطني في العراق القديم وقد أستمر حكمها مدة قصيرة لم تتجاوز القرن الواحد (٦٢٦-٥٣٩ق.م) وعلى الرغم من قصر المدة الزمنية التي حكمت فيها المملكة البابلية الحديثة الا ان عهدها كان بحق من العهود المجيدة في تاريخ العراق القديم من الناحيتين السياسية والحضارية فأما من الناحية السياسية فقد ورثت كل ممتلكات المملكة الآشورية وحلت محلها فضمت جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم تحت سلطانها بل وأمتدت بنفوذها الى سواحل البحر المتوسط شمالاً كما أمتدت سيطرتها الى سواحل الخليج العربي جنوباً كما كان لهذه المدة أهمية خاصة في دراسة التغيرات الجذرية التي حصلت في مدن بلاد سوريا وفلسطين لا سيما بعد ان قضى نبوخذ نصر على دويلة يهوذا ورحل سكانها الى بابل. أما من الناحية الحضارية فقد وصلت مدينة بابل الى قمة مجدها وأزدهارها الحضاري وغدت أروع وأوسع مدن العالم القديم قاطبة بل فاقت بسعتها وعظمتها وشهرتها جميع العواصم الآشورية كما فاقت مدينة أثينا وروما والأسكندرية وغيرها وغدا أسمها يطلق على العراق بأسره قديماً وكانت جميع الآثار المكتشفة في مدينة بابل من بقايا معمارية وغيرها تعود إلى العصر البابلي الحديث[٣]

الأوضاع السياسية «عصر الركود السياسي (٥٦٢– ٥٥٥ ق.م)»

لم يكن نبونائيد من العائلة المالكة الحاكمة، ولكنه ينحدر من عائلة بابلية رفيعة المستوى فهو نجل الحاكم والأمير المدعو نبو- بلاطو أقبي، الذي كان حاكما على حران أما أمه فقد كانت أدد- كوبي الكاهنة العليا لمعبد الإله سين إله مدينة حران وربما كانت من أسرة آشورية أرستقراطية أو أنها من العائلة الملكية الآشورية حيث أن أحد النصوص المسمارية يشير الى أنها كانت قد ولدت في منتصف عهد الملك آشوربانيبال ومن المعروف أنه في تلك الحقبة كانت كهانة المعابد

الرئيسة تعهد الى أمراء وأميرات من العائلة المالكة كما يشير النص نفسه الى أنها عاشت عمراً طويلاً ١٠٤ سنوات وعاصرت عدداً من الملوك الآشوريين والبابليين وتوفيت في عهد أبنها نبونائيد الذي ورث عن أمه الأهتمام

بالشــؤون الدينيــة وخاصة عبادة الإله ســين (القمر) الذي كرست حياتها له.[٤]

كان على نبونائيذ وهو آخر الملوك البابليين بعد توليه الحكم أن يواجه الاضطراب الداخلي الذي حدث بعد وفــاة الملك نبوخذنصرالثاني والذي خلفه على العرش ملوك ضعفاء لم يســتطيعوا أن يحكموا البلاد أكثر من ست سنوات ونصف ولــم يتمكنوا من خلالها الســيطرة على حدود البلاد فكان عهدهم عهد ضعف أضطربت فيه الأحوال الداخلية وقامت فيه التمردات [٥]، توفي نبوخــذ نصر في المدة الواقعة بين ٢٦ ايلول و٦ تشرين الاول عــام (٥٩٣ ق.م).[٦] واول هؤلاء الابناء اميل مــردوك(٥٦٢-٥٦٠ ق.م) (أويل مــردوخ ٢ملــوك ٢٥ : ٢٧؛ ارميــا: ٥٢-٣١) الذي قتل في ثورة بعد حكم قصير دام ســنتين ولا يعــرف عنه الا الشيء القليــل الى جانب ما ذكــره العهد القديم (٢ ملــوك ٢٥ : ٢٧-٣٠) من انــه اظهر حســن معاملتــه الى يهوياكين حاكم دويلة يهوذا الذي كان مسجونا في بابل. [٧] وقد اطلق سراحه ربما لرغبة الملك في جذب الاعوان أو كاشارة ود الى مصر لان هذا الحاكم ووالده كانا حليفين لمصر.[٨] وكان للكهنة دور في تلــك الأضطرابات فقد ثاروا عليه لســماحه لليهود بممارســة طقوسهم الدينية بكل حرية وعلى نطاق واسع فلهذا أقدموا على قتله[٩] وقد دبرت المكايد ضده للاطاحة به بعد مؤامرة من قبــل زوج اخته وأبن عمه نرجلســار (٥٦٠-٥٥٦ ق.م) (نرجــال- شــار- اصر ارميا ٣٩: ٩) والذي كان احــد القادة الذين قاموا بمهمة عســكرية كبيرة في عملية حصار اورشليم على يــد نبوخذ نصرالثاني لذلــك فقد كان يحظى بأحترام ومكانة خاصــة في نفس نبوخذ نصر وهــذا ما جعله يحظى بشرف الزواج من ابنته ولهذا يمكن القول انه سار على خطى السياسة التي كان ينتهجها نبوخذ نصر واستمر حكمه للبلاد حوالي ثلاث الى أربع ســنوات.[١٠] وهناك شخصية يجب التوقف عندها بالتازار هل هو أبــن نبونائيد أم حفيد الملك نبوخذنصر الثاني من زوجتــه الأميرة المصريــة نيتوكريس حيث كان قد عين مســاعداً للوصي منذ السنة الثالثة من حكم أبيــه الملك نبوخذنــصر الثاني وكان هو الآخر حاكماً في عهد نرجلسار وهذا يوضح الخلــط الذي وقــع فيه الكتاب الكلاســيكيون بــين الملــك نبوخذنصرالثاني والملــك نبونائيد

وبالتـازار من جهـة أخرى وقد خلـط المؤرخ اليونانـي هيرودتس(الـذي عـاش في القـرن الخامـس قبل الميـلاد) بين الأثنـين خلفه على العرش ابنه لاباشي مردوك وكان لايزال صغيراً فقـد أغتيل هو الآخر[١١] ويبدو أن كتاب النبي دانيال الذي يتحدث فيه عن أحلام نبوخذنصر الثاني ينطبق خير الأنطباق على قصة نبونائيد وقد فسر أحـد أحلام الملك وكأنـه يتزعم فترة حكم الملك من قصره ويعيش سبع سنوات مع الحيوانـات وتخبرنـا النصوص بـأن نبونائيد بقي مدة سـبع سـنوات في تيماء وأن بالتازار أدار الحكم في بلاد بابل وقاد الجيش بنفسه[١٢] وتؤشر لنـا مدة حكمه ندرة في النصوص التي وصلـت الينا من عهده حيث كانت قصيرة ولم تتجاوز الثلاثة اشـهر وواجـه فيها معارضة واسـعة ادت الى عصيان كبار موظفي المملكة وتنحيته عن العـرش بتأييد ومباركة من قبل رجال الديـن والكهنة مرة أخـرى[١٣] ونصب بدلا منه نبونائيد (نبونيدس) الدبلوماسي الذي كان قـد بعثه نبوخـذ نصرالثاني بالمفاوضات بين الليديين والميديين عام(٥٨٥ ق.م).[١٤] كان نبونائيد من الشـخصيات البابلية البارزة إذ تشـير النصوص المسـمارية أنـه قام بدور الوسـيط لتسوية الخلاف بين الميديين ومملكة ليديا في عهد الملك نبوخذنصر الثاني وقد سـاد الأعتقاد بين أوساط الباحثين بأن الملك نبونائيد من الشخصيات الضعيفة والمهزوزة حيث كان همـه الأول الأهتمام بالبحث عن الماضي وآثاره وجمع النصوص القديمة وأستنسـاخها حتى عده الباحثـون أول آثاري في العـراق؛ غير أن مانشرته النصوص التأريخية قد بين أنه فضلا عن أنه كان ملكاً ذا ثقافة عالية فأنه كان رجلاً بارعاً في السياسـة ذا قابلية فائقة وقد شـعر بالمشـكلات والمخاطر التي كانـت تهدد كيان الدولة في الصميم فعمل جاهداً لتخليص البلاد من مشـاكلها وأيجاد الحلـول الناجحة لذلك. كانـت معلوماتنا عـن الملـك نبونائيد تنحصر فيمـا ورد ذكره في المصادر البابلية وخصوصاً حوليـات الملـك وتقاريـره التـي تحدثت عن أنتقالـه الى تيمـاء وتحركاتـه السياسـية والعسكرية في شمال الجزيرة العربية لكن بعد أكتشـاف مجموعة مهمة من النقوش العربية القديمـة والتي كتبت من قبل سـكان المنطقة ولغتهم سـلطت الضـوء على حقائـق جديدة

عن طبيعة العلاقة بين القبائل العربية هناك وبين الملك البابلي هذا من جانب ومن جانب آخر فقد أوجدت تلك المصادر توازناً متنوعاً في المصادر والمعلومات التأريخية شمل كل جوانب وحيثيات الموضوع وأتاح الفرصة من أجل التحقيق في صحة المعلومة التي يسوقها كل طرف عن نفسه[١٥] لقد واجه نبونائيد عند أعتلائه العرش أثر الأنقلاب الذي جاء به الى العرش البابلي المشاكل الداخلية والخارجية وقد تحدد وأنحصر الارتباك والاضطراب الداخلي في مشكلتين أساسيتين الاولى الناحية الاقتصادية والثانية الناحية الدينية.

المشكلة الأقتصادية:

ترك لنا عصر الملوك الكلديين القصير الأمد ذخيرة من سجلات التاريخ والنصب والمدونات الملكية والرسائل التجارية القادرة على أعطاء صورة شبه متكاملة للدولة البابلية الحديثة ومن هذه المجموعات تظهر صفتان متميزتان تضفيان على كامل الحقبة خصوصية متفردة أولاهما التحديث الديني المقرون بنشاط عمراني واسع النطاق، وثانيهما أستعادة المعابد لدورها كمؤسسة أجتماعية وأقتصادية كبيرة. كانت الظروف والطبيعة الجغرافية وأرادة الحكام قد حتمت على الدولة الآشورية أن تتحول الى دولة عسكرية ولقد أدت هذه العوامل الفاعلة خلال الف عام من التدهور السياسي الى جعل بابل الوريث الشرعي والحامي الحقيقي للتراث السومري والأكدي لذلك فقد أتخذت النهضة البابلية في القرن السادس قبل الميلاد شكل أحياء وتحديث ديني حيث كرس الملوك الكلديون وقتا وجهودا وأموالا طائلة لأعادة وأحياء الطقوس القديمة والأحتفال بالأعياد الدينية بعروض فخمة وفي نصوصهم الملكية جرى التأكيد على أنجازاتهم العمرانية أكثر من أعمالهم الحربية فالكثير من المخلفات والنقوش التي بقيت من عهد نبوخذ نصر الثاني لا تشير الى حملاته الحربية بل أن غالبيتها تتناول أنجازاته في مجال التعمير والبناء.[١٦]

كانت القصور البابلية على العكس من القصورالآشورية، فلم تكن الأبواب تحرس بمنحوتات حجرية ضخمة كما لم تكن هناك منحوتات حجرية أو مصورات بارزة تزين جدران القصور بسب أنعدام الأحجار في

القسم الجنوبي وكثرة الأعمال الفنية على الآجر وخير دليل على ذلك هو ظهور الأعمال الآجرية في مدينة بابل إبان سلالة بابل الأخيرة أو ما بعد العصر البابلي الحديث، حيث تضمنت هذه الأعمال صورا لحيوانات وتخطيطات لبنايات وأعمدة بالألوان المختلفة على الواح الآجر المصقول؛[١٧] وخير تعليل لظاهرة التوسع العمراني الكبير الذي شهده هذا العصر، أن مآثر الملوك البطولية في المعارك لم تعد تحتل المكانة الأولى لدى ملوك هذا العصر بل جاءت أعمالهم الدينية في بناء المعابد وأعمالهم الدنيوية في بناء القصور خير شفيع لهم لتخليد أمجادهم.[١٨] فهذه النشاطات العمرانية الواسعة التي أضطلع بها الملوك وتحديداً الملك نبوخذنصر الثاني في مدينة بابل وغيرها من المدن كانت لها آثارها السلبية على الناحية الأقتصادية نظراً لأنها أرهقت خزينة البلاد على مشاريع لاتعود بالفائدة الى البلاد وسحبت أعداداً كبيرة من الأيدي العاملة للعمل في تلك المشاريع غير المنتجة كما كان للحملات العسكرية المتكررة ومشاركة أعداد كبيرة من الأيدي العاملة فيها عامل آخر في تردي وسوء الأوضاع الأقتصادية.[١٩]

لقد كان اعتماد ملوك الدولة الاشورية على المعابد بدرجة كبيرة جدا لضرورة ألجأتهم إليه الحاجة لكسب الدعم والثبات السياسي، حيث شملها أشراف إداري صارم.[٢٠] لكن الظروف التي أدت الى سقوط الدولة الاشورية قد حررت المعابد من التدخل الحكومي الى حد بعيد. فقد كانت سياسة الملكين نابولاصر ونبوخذنصر الثاني (٦٢٦-٥٦٢ق.م) تعتمد على التمسك والاخلاص للتقاليد الدينية القديمة المتوارثة، فعمدا الى بناء المعابد وتزيينها، وامتنعا عن التدخل في شؤون المعبد واكتفيا باجتزاء نسبة ٢٠٪ من مواردها. [٢١]

لم يقتصر عودة تعاظم المعبد في العصر البابلي الحديث على الحياة الدينية بل شمل كذلك الحياة الاقتصادية للمجتمع البابلي بدرجة تضاهي اهمية المعبد الاقتصادي في عصر فجر السلالات قبل نحو الفي عام وعلى عكس ما لاحظنا من اتجاه العصر البابلي القديم ولاسيما عصر حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م) إلى تقليص سلطات المعبد وتعاظم سلطة القصر والفصل بين السلطة الزمنية والسلطة

الدينيــة وتشــير الوثائق الدينيــة الكثيرة التي وجــدت في معابــد هــذا العــصر مثــل منطقة المعبــد في مدينــة الوركاء(أي-أنــا) إلى ازدياد أملاك المعبد واتساع نشاطه التجاري في داخل البلاد وخارجها، بحيــث كان مركزا اقتصاديا واجتماعيــا مســتقلا عــن الحكومــة تقريبــا، واســتطاع المعبد أن ينافس سلطات الحكومة والملــك ويســتقل عنهــا والحقت بــه أصناف عديدة من الموظفين مدير الشؤون الاقتصادية Shatammu والناظــر Qipu والمســجلين والكتبة إذ اتســعت اعمال المعبــد الاقتصادية فشــملت اســتئجار العمــال والمعبــد وحــرث الحقــول وحفــر القنــوات في الارض الزراعية العائــدة إليــه وكري أنهار الــري الى غير ذلك من أوجه النشاط الاقتصادي الواسع وبضمن ذلك الاعمال المصرفية الكثيرة.[٢٢]

عانــت بابل مــن صعوبات ماديــة، فقد كرس الملوك الكلديــون وقتا وجهــودا وأموالا طائلة لإعادة بنــاء المعابد واحيــاء الطقوس القديمة والاحتفال بالأعياد الدينية بعروض فخمة وفي نصوصهم الملكية جرى التأكيد على انجازاتهم العمرانيــة.[٢٣] يضــاف إلى ذلــك أن الدولــة البابليــة الحديثة كانت مواردها المالية اقل من الدولــة الاشــورية كما أن الدولة الاشــورية لم تحتفــظ بجيش جاهز للمعركــة وانما حددت الضغــط عــلى قواتهــا البشرية وذلــك بالقيام بالحملات العســكرية لعدة أشهر من كل سنة فقط.[٢٤] أما الدولــة البابلية فكانت تعمل منذ عهد نبوخذنصر الثاني على وجود جيش جاهز للمعركة قد يبقى لعدة ســنوات كما هو الحال في حصار صور الذي أشــار إليه حزقيال(٢٩: ١٧-١٨) والذي أســتمر دون نجاح لمدة ثلاث عــشرة ســنة؛[٢٥] بالأضافة الى الامــوال الكثير اللازمــة إلى إعالة جيش دائمي وعلى الرغم من بقاء ســوريا وفلســطين بأيدي البابليين إلا أن التمــردات القائمة بأســتمرار فيها جعلت تلك البقاع البعيدة مصدرا للأعباء الثقيلة أكثر من كونها مصدرا للعون والرفاهية.[٢٦] فلم تســد الثروة الزراعية الواسعة الحاجات الضرورية، وممــا زاد في تفاقــم الوضــع تناقــص الموارد التجاريــة التي كانت من أهــم مصادر الرخاء في حضارة بلاد الرافدين فقد حرمت بلاد بابل من الموارد التجارية المهمة في الاقاليم الشمالية الشرقية على أثر ظهور الدولة المادية.[٢٧] وأكثر

مــن ذلك قيام الدولة الفارســية الاخمينية،[٢٨] التــي خلفتهــا في أحتكار الطــرق التجارية في تلك الاصقــاع كما أن المــدن الفينيقية الكثيرة فقدت الكثير من مقومات رخائها وثروتها بعد أن أصبح القرن الســادس قبــل الميلاد العصر الذهبي للتوسع الاستيطاني والبحري للإغريق ممــا أدي الى أنتقــال تمركز الموانــئ التجارية الرئيســية لشرق البحر المتوســط من الساحل اللبناني إلى الموانئ اليونانية والايونية والليدية إلى كليكيا ومصر.[٢٩]

كما قادت الأوضاع التي عاشها القسم الجنوبي من العراق خلال أكثر من مئتي ســنة بســبب الصراع والحــروب بين الاشــوريين والكلديين وســلالة القطــر البحــري إلى تغــير وصرف الطرق التجارية التقليدية التي كانت تصب في بابل عن الفــرات أو الطرق البرية المحاذية له. أدت هــذه الظروف الى انتقال خطوط التجارة نحو الغــرب حيث أصبحــت تجــارة القوافل وعقدها في أنحاء الجزيرة العربية شــهيرة بين مراكز الدول المجاورة. ففي رسالة معنونة الى أشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ق.م) يخبره كاتبها أن تاجرا أسمه Ammemi-ilu من أهل تيماء زار شــمش- شــوم- أوكن في بابــل،[٣٠] المهم في هــذه الرســالة أرتباط تيماء التي ســتكون مستقرا لبنونائيد وقاعدة أنطلاق نحو حملاته في الجزيرة العربية بالتجار والتجارة.[٣١]

وبالطبــع فقد أفــضى تضخم الانفاق وشــحة الموارد الماليــة للمملكة إلى أســتنزاف الخزينة الملكية مما أثر كثيرا على الأقتصاد بشكل عام، وفي ضوء هذه الحقائق يمكن تفسير الازدياد في أرتفاع الاسعار ما بين بداية هذا العهد ونهايته التي شــهدت أرتفاعا فاحشــا يمكن تتبعه من فحص الوثائق الاقتصادية الكثيرة التي جاءتنا مــن هذا العهــد مثل ســجلات البيــع والشراء والاجور والقروض،[٣٢] بحيث اصبح الشــيقل الواحد يزن حــوالي ٣/١٠الاونس، ويســاوي المــن حوالي شــيقلا ووزنه ٥٠غــم تقريبا. أما الطالنــت فيزن حوالي ســتين منا أي حوالي ٣٠ كغم تقريبا.[٣٣] وبلغ معدل الارتفاع ٥٠٪ بين عامي (٥٦٠-٥٥٠ق.م) وبلغ مجموع الزيادة الكليــة مــن عــام (٥٦٠- ٤٨٥ ق.م) نحــو ٢٠٠٪،[٣٤] كما ارتفعت أســعار المواد الغذائية والحاجيات اليومية الاخــرى وزيادة التضخم وقلــة المــواد الغذائيــة الأساســية الى درجــة

تضاعفت فيها الأسعار وحلت بالبلاد مجاعة وقد نسب نبونائيد ذلك الى عدم تقوي الناس وتشير بعض العقود القانونية المكتشفة الى أن بعض الناس من الفقراء أضطروا الى بيع أولادهم أو تقديمهم على أقل تقدير الى المعابد تخلصاً من نفقاتهم المعيشية؛ ويصعب التأكد هل واكبت زيادة الأجور أرتفاع الاسعار على أن الانطباع العام يشير إلى أنها لم تماشيها في الارتفاع بحيث التجأ عامة الناس الى القروض من المعابد ومن البيوت المالية والمصارف ومن أصحاب رؤوس الأموال من المرابين بفوائد عالية وكثرت المصارف والبيوت المالية الخاصة مستغلة حاجة الناس إلى النقد وربما كان اليهود المسيطرين على تلك المصارف والبيوتات والمستغلين لحاجة الناس فزادوا في نسبة الفوائد زيادة كبيرة، جدير بالذكر أن استعمال النقود الرسمية المسكوكة في العراق والدول المجاورة لم يتم إلا منذ عهد الملك الاخميني دارا الاول (٥٢١-٤٨٦ ق.م) بعد أن ظهرت في ليديا (آسيا الصغرى) في القرن السابع قبل الميلاد ومع أن استعمال المعادن وفي مقدمتها الفضة بأوزان معينة واشكال خاصة كان شائعا في العراق في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد الا أن العهد البابلي الحديث تميز بأطراد استعمال الفضة وحدة للاسعار الاخرى وتحديدها بالنسبة إلى الذهب بمقدار ٤أو ١٠ إلى واحد وقد بلغت نسبة الفائدة على الديون ٤٠-٥٠٪ بينما كانت خلال القرنين المتقدمين تبلغ ١٠٪.[٣٥]

وإلى جملة هذه الاسباب يعود تصدع الحركة التجارية في عصر الدولة البابلية الحديثة فقد كانت بلاد بابل تتألف من خليط من الأقوام فضلا عن سكان البلاد الاصليين، كان هناك الاراميون والمصريون واليهود. فقد أثر اليهود الذين كانوا في بابل في تلك الفترة تأثيرا كبيرا لمضاعفة الاسعار ورفع نسبة الفوائد على القروض، مما أضطر بعض المقترضين إلى بيع أملاكهم بل أنهم باعوا أولادهم سدادا لدينهم وكان هذا في السنوات الاخيرة للدولة البابلية الحديثة، كما كانت معدلات الاجور التي تدفع للموظفين والعمال لاتواكب الارتفاع الفاحش في الاسعار[٣٦] وازاء هذا الوضع المتردي الذي أصاب الخطوط التجارية للدولة البابلية وبالتالي أدى إلى تدهور الوضع الاقتصادي

فيهـا، فقد أدرك بعض ملـوك الدولة ضرورة أتخـاذ التدابـير اللازمة من أجل انقـاذ البلاد من الضائقة الاقتصادية التي أخذت تسري في كيانها.

المشكلة الدينية:

أرتكـزت المعتقـدات الدينية في بـلاد الرافدين على مبدأ الشرك وتعـدد الآلهة وقد أحتل الآله مـردوخ إله بابـل القومي مـكان الصدارة الى درجـة حـورت جميـع القصص والأسـاطير الدينيـة لتضعه في مقدمة الآلهـة وتجعل منه بطلا لها إلا أن أحتكاك البابليين بأقوام أجنبية تعتقـد بمعتقدات أخرى مختلفة قد خلق نوعاً مـن البلبلـة والأضطراب ولا سـيما المعتقدات التـي جاء بهـا الميديون من جهـة ومعتقدات اليهـود مـن جهـة أخـرى والذيـن جـاء بهم الملـك نبوخذنصر الثاني الى بـلاد بابل والذين أعتمـدت ديانتهـم أساسـا على مبـدأ التوحيد فضلا عن ذلك فقد كانـت عبادة الإله مردوخ عبـادة محليـة مرتبطـة ببلاد بابـل بالدرجة الأسـاس لذا فأنها لـم تلق التأييـد والترحيب في أرجـاء الأمبراطورية البابلية الواسـعة التي ضمـت أقوامـاً مختلفـة من حيـث المعتقدات الدينيـة. وقـد كانت للمعبـد وكهنتـه في هذا العـصر أهمية ومكانة كبـيرة تضاهي ما كان لـه من نفوذ في عصر فجر السـلالات قبل ذلك بأكثـر مـن الفي سـنة فبعد أن تقلـص نفوذ المعبـد وكهنته تعاظمت سـلطة ونفـوذ الملك والقصر منذ بدايـة العصر البابلي القديم، عاد المعبـد ليحتل مركـزه الأول في العـصر البابلي الحديث ولا سـيما في مدينـة الوركاء فأزدادت أملاكه وأتسـعت أراضيه وزاد نشـاط كهنته الأقتصـادي حتى غدا بـؤرة النشـاط الديني والأقتصادي في المدينة ويتمتع بأستقلال شبه كامـل عن القـصر الملكي يقابل ذلـك بالطبع تقلص وأنكماش في السلطة المركزية الى درجة أصبح المعبد ينافس الملك وينازعه في سـلطته السياسـية وربما يكون هذا من الأسباب التي دفعـت نبونائيد لإجـراء تغيـيرات وتعديلات جذريـة في المعتقدات الدينية السـائدة وكذلك تدخله المباشر في شؤون المعبد من خلال تعيين موظفـين ملكيين في المعابد الرئيسـية مما زاد من سـخط كهنة المعابد ولاسـيما كهنة معبد الإله مـردوخ على الملك وموظفيـه ورغبة منه في التوفيـق بـين المعتقـدات الدينيـة في أرجاء

البلاد الواسعة ومن أجل تقليص نفوذ كهنة الإله مردوخ كما يبدو فقد أتخذ نبونائيد من الإله سين اله القمر والإله الحامي لمدينة أور في جنوبي العراق ومدينة حران على الحدود السورية إلهاً أعلى ورئيسي في عموم أرجاء الدولة مع الأعتراف بالآلهة الأخرى؛ فإله القمر من الآلهة التي كانت تعبدها مختلف الأقوام التي دخلت تحت راية الدولة البابلية ولكن بأسماء مختلفة في حين كانت عبادة الإله مردوخ إله مدينة بابل عبادة محلية غير معروفة خارج حدود بلاد بابل وآشور فضلا عن تأثر الملك نبونائيد الى درجة كبيرة بعبادة الإله سين من أمه وأبيه اللذين كانا يعملان في خدمة هذا الإله لمدة طويلة في معبده في مدينة حران. وقد ينظر الى هذه التغييرات في المعتقدات الدينية البابلية والذي جاء به الملك نبونائيد بأنه دعوة شبه توحيدية تحد من الشرك وتعدد الآلهة ويمكن مقارنتها مع دعوة أخناتون في مصر والذي دعا الى عبادة قرص الشمس آتون ألإ أن نبونائيد لم يحرم باقي العبادات وظل يعتقد ويؤمن بتعدد الآلهة وتنفيذاً لتلك السياسة الدينية الجديدة فقد عمل نبونائيد أول الأمر على تخليص مدينة حران من أيدي المحتلين الأمانمندا. ثم باشر بإعادة بناء وترميم معبد إله القمر سين فيها؛ وكعادة الشعوب القديمة في بيان أسباب قيامهم بأعمال معينة فقد أدعى نبونائيد بأنه رأى حلماً أمره فيه الإله سين بأن يخرج الأمانمندا من حران ويعمر معبده فيها وقد كان أهتمام نبونائيد بالإله سين مثار سخط كهنة الإله مردوخ وغيره من الآلهة البابلية حيث عدَّ ذلك خروجاً عن المعتقدات الدينية التقليدية القديمة السائدة آنذاك فأثاروا الناس ضد ملكهم وضد العبادة الجديدة وتسببوا في فوضى سياسية وعصيان لأوامر الدولة الى درجة أن أحد النصوص يذكر: «نسي أبناء بابل وبورسيبا وأور ولارسا وسكان المدن الدينية في أكد.... واجباتهم وتحدثوا عن الخيانة وليس عن الطاعة. كما قام بإعادة أعمار معبد الإله القمر في مدينة أور وأعاد تعيين إدارات جديدة في المعابد الرئيسة في الوركاء وغيرها من المدن البابلية مما يشير الى أدخاله نوعاً من الإصلاحات الدينية. وقد أستغلت الأسر اليهودية التي كانت تعيش بسلام في

مدينــة بابل الأزمة الدينية هذه والخلاف الذي كان موجوداً بين الملــك نبونائيد ورجال الدين مــن الكهنة فزادت حــدة الخلافات وحرضت كهنــة الإله مردوخ على الملك ونشرت الدعايات المغرضــة هــذه وأتهمتــه بالهرطقــة والكفر والخــروج عن المعتقدات الدينية الســائدة.[٣٧] فالموقف الســلبي لرجــال الدين مــن نبونائيد يعود للسياســة التي انتهجهــا نبونائيد معهم وحاول ان يجعل من حران ومن الههها «سين» بديــلا لبابل والههها مردوخ وحدد السياســات الاقتصاديــة للمعابد مما اثــار حفيظة الكهنة عليــه، ومما زاد في تفاقم الامــر ان غياب الملك نبونائيد عن بابل لمدة عشر سنوات قد ادى الى توقف اشــهر واهم الاحتفالات الدينية في البلاد وهي احتفالات رأس الســنة (اكيتو) المكرســة للاله مــردوخ اله بابل الرئيــسي،[٣٨] فقد كان توقــف الأحتفــالات أو إلغاؤهــا يعنــي إعلان الحداد الوطني ولم تغفل كتب الأخبار البابلية أن تشــير الى ذلك: «ســنة ...لم يــأت نبونائيد الى بابــل، ولم يذهب الإله نابــو الى بابل، ولم يخرج البعــل، وتوقف عيد الأكيتو»،[٣٩] ووقد عــبر الكهنة عــن نقمتهم بشــكل علمي وذلك بالاتصال بكورش الثاني ودعوته على ما يبدو للقدوم الى مدينتهم.

حلول وإجراءات الملك نبونائيد:

وضع حد لإستقلالية المعبد

لقــد كانــت سياســة نبونائيــذ عــلى العكــس مــن سياســة ســابقيه، فعزم عــلى وضع حد لإســتقلالية المعبــد ووضــع نشــاطات المعبد الاقتصادية لــلاشراف الملكــي الدقيق فانتدب لهــذه المهمة اثنــين من الموظفــين الكبار هما: الضابط الملكي ســيد العينة، والضابط الملكي المؤتمن على صندوق الملــك ووكلهما على معبد انانــا في الوركاء عام (٥٥٣ ق.م) وزودهما بالتعليمات لــلاشراف على الصفقات التجارية لهــذا المعبد وتأمــين جباية منتظمــة لضريبة العــشر وبالتاكيــد فان هــذا الاجراء قــد اوغر صــدور الكهنــة عليــه،[٤٠] فشــنوا عليه حرب التشــهير والمعارضة التي وجدت ارضا خصبة حيــث كانت البــلاد مهددة بالاطمــاع الايرانية ويعد هذا التدخل في شؤون المعبد من العوامل المهمة التي عجلت في ســقوط نبونائيد[٤١] لكن ينبغــي القول ان هذه التغــيرات الادارية التي شــهدها حكم نبونائيد قد حدت من ســيطرة

المعبـد الكاملة على وارداتها واصبحت الانظمة الادارية الى جانب مصلحة الملك وبالتالي فانها تصب في مصلحة الدولـة الاقتصادية من اجل سـد نفقاتها المختلفة. كما عمد الملك نبونائيد الى الاهتمام بمدينـة اور وتجارتها مع الخليج العربـي ويمكن تفسـير اهتمـام نبونائيد بها ذلك الاهتمـام الذي بلغ حـد مضاهاتها لبابل ورفع شـان إلهها سـين (اله القمر)[٤٢] الى ما يوازي شـأن الاله مردوك كبـير الالهة البابلية بسـبب المكانة الاسـتراتيجية التي تحتلها اور في التجـارة الخارجيـة . كمـا ان امـر اهتمام نبونائيد بمدينة اور من جانب وكذلك اهتمامه بطرق القوافل التجارية وعقدها الرئيسـية في الجزيرة العربيـة وخاصة تيماء يعكس جانبا مـن الاوضـاع الاقتصاديـة وربما السياسـية المتردية في بابل، التي أراد نبونائيد لها مخرجا وحلا بالتوجه صوب هـذه المراكز فكانت أور بالنسـبة إلى التجارة البحرية، وتيماء بالنسبة للتجارة البرية المدينتين المنشودتين.[٤٣]

التوجه الى شمال الجزيرة العربية:

كما حـاول نبونائيد أتخاذ التدابير الضرورية لمواجهـة تفاقمات الأزمـة الأقتصادية فحاول نقل ثقل الدولة الى الغرب لضمان أمن الطرق التجارية القادمة من جنوبي الجزيرة العربية والحصـول عـلى مـوارد جديـدة مـن الطرق التجارية في شـمال الجزيرة فقـررأن يتوجه الى شـمال شـبه الجزيرة العربية؛ فأتخذ الملك نبونائيد سياسـة جديدة في التعامل مع العرب فبعد أن كان أسـلافه يتبعون سياسة الغارات العسكرية المفاجئة ضد العرب وبلادهم حاول الملك نبونائيد الى تطبيق فرض الهيمنة المباشرة وبسـط النفوذ والإقامة هناك؛[٤٤] ونصب أبنه بيل- شـار- اصغر وصيا على العرش في بابل حيث كان قد أشركه في الحكم منذ سـنة حكمه الرابعة، ونقرأ في أحد النصوص المسمارية عن حملة عسـكرية أخترقت الأراضي السـورية في سنة حكمه الثالثة وتم تجميع قواته العسكرية هناك «قام شـعب أكد وبلاد حاتي (سـوريا) بتأمـين الحراسـة لي وحققـوا سـلطتي عـلى المسارات البعيدة وعللا الطرق المنعزلة»[٤٥] وفي سنة حكمه السـابعة أي عام (٥٤٩ ق.م) قام بحملة عسـكرية بإتجاه الغرب مارا بسـوريا حتى وصل تيماء مخترقاً الأراضي الصحراوية وحـاصر آدمو(الجـوف تبعد ٢٨٠ميـلا شرق

العقبــة) ثم توجــه الى تيمــاء وقتــل حاكمها المدعو(يتر) وسكانها وسكان المناطق المجاورة وقطعان الماشــية ثم قام بإعادة بنائها وشــيد سورا للمدينة وبنى فيها قصرا شبيها بالقصر في بابل ووضــع فيها حامية عســكرية وأتخذ هــا قاعدة إنطــلاق لحملاته العســكرية حيث أن موقعهــا غربي الجزيــرة العربية يتيح لها فرصةالتحــرك بســهولة من واحــة الى أخرى وأقام فيها عشر ســنوات وتذكر كتاباته أنه في سنة حكمه العاشرة كانت المؤن تنقل بواسطة الجمــال مــن المعبــد في أوروك(الــوركاء) الى نبونائيد في تيماء[٤٦] نقرأ في نقش حران حول الإقامــة في تيماء ومن ثم التوجه الى باقي مدن شــمال غرب الجزيرة العربيــة: «وأنا خرجت من مدينتي بابل وســلكت طريقــي الى مدينة تيمــاء؛ مدينة دادان؛ مدينة فدك؛ مدينة خيبر؛ مدينــة بديع وحتى مدينة يثرب عشر ســنوات متتالية تجولت بينهــا مدينتي بابل لم أدخلها «فأستناداً الى الرواية البابلية فأن الملك قد ترك مقاليــد الأمــور في بابل لأبنه في ســنة حكمه الثالثة وتوجه الى شمال الجزيرة العربية».[٤٧] كان مــن الضروري بعد ذلــك القيام بحملات عسكرية لضمان السيطرة الكاملة على المنطقة فأندفــع نحو الجنــوب خلال فــترة مكوثه في الجهات الغربية مسافة ٢٥٠ميلا الى أن وصل يثرب «يتريبو» وترك له حاميات عســكرية في الواحات الست بعد أن سيطر عليها في الشمال والجنوب وهــي، العلى، البديــع، خيبر، يثرب، فــدك، تبوك، وأســكن فيهــا جماعــة من بلاد الشــام ومن بابــل ولعل من بينهــم يهوداً من الاسرى الذين رحلهم نبوخذنصر[٤٨] حســبما جاء في النــص البابلي: (أنا نبونائيد، أبن وحيد ليــس له أحــد، لم يكن في ذهنه تســلم العرش الملكي الالهة والالهات صلوا من أجلي، ودعوني لتســلم الحكم، في الليل جعلني أرى حلما قال لي مــا فيــه: (أهلّهلّ)أو(أخلخــل) معبد ســين في حران شــيده بسرعــة. أريــد ان أعطيك كل البلاد في يد(ك). الناس، ســكان بابل وبرســيا ونيبور وأور وأوروك ولاســا، الكهنة أناس من أكــد أخطأوا في حق ألوهيتــه الكبرى وارتكبوا إثما في عدم معرفة الغضب المخيف لملك الإلهة «ننــار Nannar (ســين)» نســوا طقوســهم وتكلموا كذا وزوروا. كالكلاب افترس بعضهم بعضــا. جعلت (الآلهة) مرضــا وجوعا ينتشر

بينهم. هو(ســين) أنقص سكان البلاد. أما أنا فقد جعلني أهرب من مدينتي بابل، وســلكت الطريــق إلى تيماء، دادانــوDadanu، باداكو Padakku، خيبر Chibra، يديخوYadichu، يثربو Yatribu عشر سنوات تجولت فيها ولم أدخل مدينة بابل[٤٩]... كما اتضح من ســياق الاحــداث انه في بداية اقامــة نبونائيد في تيماء كان مــن الضروري القيام بعمليات عســكرية لضمــان الســيطرة الكاملــة على المنطقــة [٥٠] فاندفــع نحــو الجنــوب في خلال فــترة اقامته في الغــرب مســافة مئتين وخمســين ميلا ومر باماكــن يمكن معرفتها حتــى وصل اخيرا إلى يثرب ويذكر نبونائيد على وجه التخصيص انه تــرك حاميات واقام مراكز حول واحات ســت ذكر اسماءها هي:

العلا الحالية	دادانو	Da – da – nu
فدك الحالية	باداكو	Pa – dak – ku
خيبر الحالية	خيبر	Hi – ib – ra – a
بديع الحالية	ياديخو	Lu – di – nu
يثرب	يثريبو	Ia – at – ri – bu

وجميــع هذه الواحــات تقع إلى جنــوب تيماء بمســافة تبلغ ٣٧٠كــم.[٥١] ويصــف نبونائيد القــوات التــي اســتخدمها بانها «ســكان اكد وبــلاد حاتي» أي المواطنين البابليين وســكان المقاطعــات الغربيــة. ومن النتائــج العرضية الغريبة.[٥٢] ان خمسا من هذه الواحات الست المذكورة انفــا كانت آهلة بالســكان اليهود في عهــد الرســول «محمد صلى الله عليه وســلم» بعد الف سنة ومن الاقتراحات التي

لا يمكــن التغــاضي عنها انه كان بــين القوات الذين رافقوا نبونائيد قسمٌ من اليهود، رغم انه لا يمكن اثبــات ما إذا كانوا مــن اولئك اليهود الذين تركوا فلسطين بعد فتح اورشليم أو انهم من اولئك الذين رحلــوا إلى بابل اثناء الترحيل البابلي زمن نبوخذنصر.[٥٣] ويبدو ان نبونائيد قد وطــن بعــض رعايــاه في جميــع الواحات السابقة الذكر لغرض الاقامة فيها وحمايتها. ويعبر عن ذلك بقوله «نشرت شعبي خارجا في الاقاليم البعيدة[٥٤] «ولتأكيد هذه العبارة هناك اشــارات اخرى لنبونائيد بانه اسكن جماعات مــن اليهود في مدينة حران والبقاع الأخرى من مملكته:

«وســقت إلى حــران جماعــات مــن بابل ومن سوريا العليا، من حدود مصر عند البحر الاعلى

إلى شـواطئ البحر الادنى وجميعهم ممن عهد بهم إلي الاله سـين ملك الالهـة».[٥٥] من خلال المعلومـات آنفة الذكـر التي جـاءت في اخبار سرجـون وتجلاتبليـزر الثالـث ونبوخذنصر بانهم رحلوا مجموعات من سـكان السـامرة ويهـودا وأسـكنوهم في بابـل وآشـور وحران وحلح يأتـي نـص نبونائيد الخـاص باعمار المعبـد في حـران مشـيرا إلى انـه اسـتخدم مجموعات من سـكان سـوريا لذا نعتقد بان من بين هؤلاء الذين شـاركوا في بناء المعبد من اليهود المرحلين.

عودة الملك نبونائيد الى بابل:

في السـابع عشر من شـهر تشرين سنة(٥٤٣ ق.م) غـادر نبونائيـد تيماء متوجهـاً الى بابل وهـذا ما يؤكـده نقش حـران الذي يـرد فيه مـا نصه: «(بعد) عشر سـنوات حـان الوقت، وأكتملـت الأيـام التـي أوحى بها ننـاري ملك الآلهة، في اليوم السابع عشر من شهر تشريت» وفي مكان آخر من النقش نفسه يؤكد نبونائيد بـأن خروجه من تيماء «بخـيرات كثيرة وغنى ووفرة سرت بقومي عبر(بلاد) الجبال البعيدة وبسلام سلكت طريقي الى بلدي» واذا كان زمن خروجـه من شـمال الجزيـرة العربية واضح المعالم من خلال رواية هذا النقش فإن أسباب خروجه مثلها مثل أسـباب مجيئه الى المنطقة تطرح أشكالية يصعب معها التحقق بدقة من الأسـباب الحقيقية التي أجـبرت نبونائيد على ترك المنطقة فشـواهد النقوش البابلية تكتفي بالقول أن معبود نبونائيد تحدث اليه في المنام وأبلغـه أن الوقت قد حان للخـروج من تيماء والتوجه الى بابـل[٥٦] «نمت (رقدت) وفي الليل كان الحلم مخيفا حتى (سمعت) كلمة (الإله): السـنة أكتملت وحان الوقت الذي أمر به ننار من تيماء (أمرني بالخروج)».[٥٧]

تكمـن الأسـباب الحقيقيـة التـي دفعـت نبونائيد الى الخروج بجيشـه وجنوده وحرسه مـن تيماء والتوجه الى بابـل إذ لوكانت الأمور تسـير حسـبما يريد لما أضطر الى الخروج من المنطقـة دون أن يترك أثرا يبقي ولو على جزء من سيطرته عليها فنبونائيد لو كانت سيطرته عـلى المنطقـة محكمة لقـام بـترك الحاميات العسـكرية في المدن التي أحتلها في شمال غرب الجزيـرة العربية وعين فيها حكامـاً من قبله يسـيرون الأمور فيهـا بما يخدم أسـتمرارية

تحقيق مصالحه التي ترك دولته من أجلها ولكن نبونائيد يعلم أن هذه الإجراءات لن تتحقق له لأنه كان يدرك أن مثل هذه الحاميات العسكرية بأقامتها في أماكن بعيدة جدا عن العاصمة وعن مراكز التموين والإمداد السريع ستكون فريسة سهلة للغاية لسكان المنطقة الذين كانوا على ما يبدو غير راضين عن الوجود البابلي فيها وينتهزون الفرصة للقضاء عليها أو إخراجها من مناطقهم على ضوء ذلك يبدو أن هناك نوعاً من المقاومة الداخلية كانت تكافح من أجل أخراج الملك وأتباعه وجنوده من المنطقة وحينما تزايدت تلك المقاومة قرر المغادرة والتوجه الى مدينة بابل من أجل أن يشارك في الدفاع عنها وتقوية جبهته الداخلية وليكمل مشاريعه العمرانية لك؛ كانت الاوضاع قد تغيرت إلى درجة كان بإمكان نبونائيد الذي كان عمره آنذاك لايقل عن خمس وستين ولعله أكثر من سبعين سنة أن يعود إلى بلاده أن يجابه أية معارضة لمشاريعه في إعادة وبناء المعبد الكبير في حران فيما كان الملك المسن يكمل مشاريعه الطويلة في تعمير معبد أخولخول في حران كان كورش مشغولا بحرب الدعاية في المملكة البابلية.[٥٨]

وقبل انقضاء القرن السادس قبل الميلاد كانت خارطة توزيع القوى السياسية في العراق والدول المجاورة قد تبدلت بسبب ظهور قوى جديدة لم يحسب لها حساب هي قوة الفرس الاخمينيين الذين دخلوا الى إيران من جهة الشمال في بداية الألف الأول قبل الميلاد وأقاموا لهم مملكة صغيرة في أقليم فارس في القسم الجنوبي الغربي من إيران وتعاونوا مع الميديين على أنهاء الوجود السياسي للدولة الاشورية. وفي عام ٥٤٧ق.م أكمل كورش الثاني ضم كامل بلاد إيران إلى مملكته وقضى على المملكة الميدية الواقعة في القسم الشمالي الغربي من إيران ضمها إلى ملكه وفي سنة ٥٣٩ق.م انقضى العهد المبرم بينه وبين الملك نبونائيد وأستولى على بعض الأراضي التابعة للدولة البابلية ثم قضى على مملكة ليديا وأخيراً أتجه الى بابل مستغلا سوء وتردي الأوضاع الأقتصادية التي عمت البلاد وأربكت أوضاعها السياسية مستفيداً من الأسر اليهودية التي كانت تعيش في بلاد بابل في نشر الإشاعات المضللة ضد الملك نبونائيد من جهة التي تمجد

الملك الأخميني من جهة أخرى .وبعد أن تهيأت الأجواء تقدم الملك الأخميني بجيشه نحو بابل فتصدى لـه الجيش البابلي عنـد مدينة أوبس عـلى نهـر دجلـة الا أن القائد البابـلي قتل في المعركـة فأتجه كورش الذي كان يقود المعركة نحو مدينة سبار ومن ثم الى مدينة بابل وبذلك انتـصر الملك الأخميني فضلاً عـن تزايد خطر القوة الجديدة التي بدأت يلوح نجمها ويتزايد نفوذها مهددة بمصالح القوى الأخرى ومنذرة بزوالها من الخريطة السياسية الا وهي الدولة الأخمينية ثم تمكن الفرس من الدخول الى بابل وأخراج الملك نبونائيد أسيراً منها ليقضي بقية حياتـه في كرمانيـا وأصبحـت الأراضي بما في ذلك الأراضي الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات تحت سـيطرته وأنهى بذلـك آخر الحكومات الوطنية في تاريخ العراق القديم وبداية وقوع العراق تحت السيطرة الأخمينية[٥٩]

يتبـين لنا مما تقـدم أن هناك عوامـل داخلية وخارجية ساهمت في حدوث الأنهيار السياسي، فالعوامـل الداخليـة قـد تمثلت بنفـوذ المعبد وسـيطرته عـلى عصـب الأقتصـاد فضلا عن الاعمـال العمرانية الكبـيرة التي تتطلب أموالا كثيرة لاتتناسب مع واردات الدولة القليلة، كما أن الحملات العسـكرية المتكررة على سـوريا وفلسـطين أنهكـت اقتصاد الدولـة رافق ذلك دور الاقليات الموجودة في بابل والتي مارسـت الكثـير منها الاعمـال التجارية ومـن ضمنها اليهود في تصدع الحركة التجارية. أما العوامل الخارجية المتمثلة في سيطرة الميديين والفرس الاخمينيـين واليونانيين على الطـرق التجارية بالنسـبة للخليج العربي والبحر المتوسط مما عجل بحدوث الأنهيار السـياسي والأقتصادي. فهذا الوضع المتأزم دفع الملك إلى أتخاذ اجراءات مـن أجـل حلحلـة الوضـع فعمـد إلى احداث تغيرات في هيكلية المعبد والحد من نفوذ الكهنة وأصبحت الانظمـة الادارية إلى جانب مصلحة الملـك وبالتالي فأنها تصـب في مصلحة الدولة الاقتصادية من أجل سد نفقاتها المختلفة عمد الى تـرك مدينة بابل والبحث عن طرق تجارية جديدة لا تخضع لرقابة وسيطرة أحد وقصد من هـذا الاجراء نقل مركـز الثقل الاقتصادي الى الغـرب، ومحاولة توحيـد القبائل الارامية في حـران والقبائـل العربية في شـبه الجزيرة العربية وجعلها تقـف في صف واحد معه من

اجل التصدي للهجوم الميدي المتوقع لقد كانت تلـك الجهـود جريئة وسـخية تجعله يقف في مصـاف الملوك العظـام الذين عرفهـم تاريخ العـراق القديم لكن هذه الامور لم يسـتوعبها كبـار الكهنـة ذوي النفوذ السـياسي والديني المؤثر فاخذوا بحروب التشهير عليه المعارضة والتي وجدت الارض خصبة حيث كانت البلاد مهددة بالاطماع الفارسية؛ فالمملكة البابلية لم تعمر طويـلا، وقبل انقضاء القرن السـادس قبـل الميـلاد كانت خارطـة توزيـع القوى في العـراق والـدول المجـاورة قد تبدلت بسـبب ظهور قوى جديدة لم يحسـب لها حساب هي قوة الفـرس الاخمينيين الذين دخلوا إيران من جهة الشـمال في بداية الألـف الأول قبل الميلاد وأقامـوا لهم مملكة صغـيرة في أقليم فارس في القسـم الجنوبي الغربي من إيران ثم تعاونوا مع الميديين على تحطيم المملكة الآشـورية عام (٦١٢ ق.م). وفي (سـنة ٥٤٧ ق.م) اكمـل كورش الاخميني مشروعه التوسـعي والمتمثل بضـم كامـل بـلاد ايـران الى مملكتـه بما في ذلـك المملكة الميدية الواقعة في الجزء الشـمالي الغربـي مـن إيران ثم نقض عهـده الذي كان بينـه وبين الملك البابلي نبونائيد وأسـتولى على بعض الأراضي التابعة للدولة البابلية الحديثة ثـم قضى على مملكة ليديـا وأتجه بعد ذلك الى بابل مسـتغلا سـوء الأوضاع الأقتصادية التي عمت أرجاء البلاد وأربكت أوضاعها السياسية ومسـتفيدا مـن الأسر اليهوديـة التـي كانت تعيش هناك وتعمل على نشر الدعايات المضللة ضد الملـك نبونائيد من جهة ونـشر الدعايات التي تمجد الملك الأخميني كونه المسيح المنتظر الذي سـينقذ البلاد من الهلاك من جهة أخرى وبعد أن تهيـأت الظروف الملائمـة لغزو بلاد بابل تقدم الجيش الأخميني نحو بابل فتصدى له الجيـش البابلي عند مدينـة أوبس على نهر دجلة الا أن القائد البابلي قتل في المعركة فأتجه كورش الأخميني نحو مدينة سبار ومن ثم الى مدينة بابل.

فلدينـا عـدة روايـات تتوزع ما بين سـجلات الأخبار البابلية وأسـطوانة كـورش التي عثر عليهـا في خرائب بابل عـام ١٨٨٢م والكتاب الكلاسـيكيون والعهد القديـم كل منها يروي لنـا قصة سـقوط المدينـة كما هو يـرى ذلك وتتفق سـجلات الأخبار البابلية مع أسـطوانة

كورش على أن المدينة أحتلت دون «قتال»[٦٠] في حين يُرجع الكتاب الكلاسيكيون وفي مقدمتهم هيرودتس أسباب سقوط المدينة على أيدي الغزاة الإخمينيين الى خدعة فارسية تضمنت كسر نهر الفرات وتحويل مجراه الذي كان يؤلف جانباً من دفاعات مدينة بابل فأنخفضت مناسيب المياه فيه وأصبح من الممكن عبوره بينما تشير نصوص العهد القديم الى أن المدينة سقطت فجأة وهي في عيد وفي هذا يقول النبي أرميا:

«لقد مددت لك الشراك فسقطت،

يابابل على حين غرة»[٦١]

الإ أن سقوط المدينة كان بالدرجة الرئيسة بسبب وجود رتل خامس في داخل بابل يتزعمه ويوجهه اليهود؛[٦٢] كما أن دور الخائن غوبرياس الذي كان على علم تام بطبيعة الأمكنة وربما كان هناك خطأ في التحصينات الدفاعية من جهة المياه الآتية من نهر الفرات والتي كانت تتدفق في القنالين وفي الجورة الكبيرة فالدخول الى المدينة كان يتطلب أجتياز السور المزدوج ثم الدخول عبر بوابات المدينة[٦٣] في تشرين الثاني سنة ٥٣٩ ق.م انتصر على المملكة البابلية وضمها الى ملكه بما في ذلك البلاد الواقعة الى الغرب من نهر الفرات لي نبو أسر الملك البابلي نبونائيد وربما قتل وكان ذلك نهاية السلالة الكلدية ونهاية الحكم الوطني في البلاد حيث وقع العراق تحت وطأة الأحتلال الأجنبي ولحقبة طويلة حتى تم تحريره في معركة القادسية عام ٦٣٧ق.م.

الهوامش :

(١) برز اسم كلدو (kaldu) وسكانها الكلديين منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد وكانت المنطقة التي سكنوها تعرف باسم بلاد البحر او القطر البحري منذ القرن، الحادي عشر قبل الميلاد (mattam-tim) وان ارضهم سميت بلاد كلدو (matkaldu) ومن الجدير بالذكر هنا ايضا ان هناك عددا من المصادر التأريخية القديمة نسبيا تسمي الكلديين وفق الصيغة التوراتية بالكدانيين وتمثل وجودهم على شكل مجمعات قبلية تسمى بيوتا او مشيخات وكان يتزعم كل بيت او مشيخة زعيم اتخذ لنفسه لقب ملك كما سميت السلالة الكلدية بسلالة بابل الحادية عشرة ينظر: غزالة: المصدر السابق، ص ١٢-١٤؛ محمد، حياة ابراهيم: نبوخذنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢ ق.م.)، بغداد – ١٩٨٣، ص ٣٢-٣٣ باقر: مقدمة (١٩٥٥)،ج١، ص ٢٠١؛ سليمان: العراق في التاريخ القديم، ج١،ص٢٤٦ .

Brinkman،J.A.. «Notes on Arameasns and chaldeans in Southern Babylonia in Early Seventh Century B.C.» Orientalia، Vol.46،No.2، 1977PP. 304 – 306

(٢) مرعي، عيد: «بابل في عهد نبونائيد آخر ملوكها»، دراسات تاريخية العدد٤-٦٣، دمشق-١٩٩٨م، ص٢٨

Binkman،J.A.,"From Destruction to Resurection on ;the Antecedentss of Babylonia s Birth As Aword Power in the Seventh Century B.C "Sumer,Vol .،No.1-2,1985,P.110-112.

(٣) سليمان:العراق في التأريخ القديم، ج١، ص٢٤٦.

(٤) ينظر: ساكز:عظمة بابل المصدر السابق، ص١٧٥؛

Lewy,J.,"Nitokris-Niqia" Journal of Near Eastern Studies Chicago-1952 Vol.6,P.273-278:Gadd.J.,"the Harran Inscription of Nabonidus"Anatolian Studies, ,Ankara-1958,Vol.8,P.35ff..

(٥) تولى الحكم بعد وفاة نبوخذ نصر أحد أبنائه وهو أميل مردوك (٥٦٢-٥٦٠ق.م) الذي قتل في ثورة بعد حكم قصير دام سنتين ،ثم أعقبه زوج أخته نرجلسار(٥٦٠-٥٥٦ق.م) والذي قتل بعد عودته من حملة عسكرية في كيليكيا (جبال طوروس) ثم خلفه أبنه لاباش مردوك حكم فترة قصيرة لاتتجاوز الثلاثة أشهر حيث واجه معارضة واسعة أدت الى عصيان كبار موظفي الدولة وتنحيته عن العرش وقتله من قبل الكهنة الذين نصبوا نبونائيد ينظر:

Sack،R.H.,"Nergal-Sarra-Usur King of Babylon as seen in the Cuneiform,Greek,Latin and Hebrew Sources"Zeitschrift Fur Assyriologie,Leipzig-Berlin-1978,Vol68,P.28-33.

(٦) ساكز: عظمة بابل المصدر السابق، ص ١٤٥؛ اوتس: المصدر السابق، ص ١٩٩،

Macqueen، J., Babylon, London –1964 p.146

(٧) ساكز: المصدر السابق، ص ١٤٥؛ اوتس: المصدر السابق، ص ١٩٩؛

Wiseman: opcit, p. 38.

(٨) جدير بالاشارة الى انه تم العثور على الختم الذي يعود ليهوياكين في فلسطين والذي استنتج من خلاله كل من اولبرايت ويدنر ومن لحق بهم انه في الوقت الذي كان فيه يهوياكين مسجونا في بابل فانه قد تم اعتباره ايضا حاكما على يهوذا . في هذا الامر ينظر :

Epha'l, I "On the Political and Social Organization of the Jews in Babylon Exile", ZDMG, Supp. 1-5، 1983, p.111.

(٩) حلمي محروس أسماعيل:الشرق العربي القديم وحضارته،مؤسسة شباب الجامعة،القاهرة-١٩٧٩م،ص٩٨.

(١٠) لا تتوفر معلومات عن هذا الملك لان اللوح التاريخي الذي يسجل احداث عصره يعاني من النقص باستثناء السنة الثالثة . ينظر:

Wiseman: opcit.، p.39; Sack، R.H., "Nergal-Sara-USUR king of Babylon as seen in the cuneiform، Greek, Latin and Hebrew sources", ZANF، Vol.68, 1978, p. 129-149; Albright، W.F., "The Nebuchadnezzar and Neriglissar chronicles", BASOR، No. 143, 1956, p. 28-33.

(١١) مارغريت روثن: بابل ،ص١٦٦-١٦٧.

(١٢) روثن، بابل ،ص١٦٦-١٦٧.

(١٣) أسماعيل حلمي محروس: المصدر السابق،

ص٩٨.

(١٤) رو: المصدر السابق، ص٥١٠؛ أوتس: المصدر السابق ، ص ٢٠٠؛

Macqueen: opcit., p. 147; Thompson: opcit, p. 281

(١٥) سعيد بن فايز السعيد : «حملة الملك البابلي نبونائيد على شمال غرب الجزيرة العربية»، بحوث تأريخية؛ الاصدار الثامن-٢٠٠٠ الجمعية التأريخية السعودية،ص١.

(١٦) محمد، حياة أبراهيم: نبوخذ نصر الثاني٦٠٤-٥٦٢ق.م، بغداد-١٩٨٣م، ص٤٦-٥٢.

(١٧) طه، منير: «الرسوم والنقائش الصخرية في الوطن العربي» ضمن كتاب النقائش والرسوم الصخرية في الوطن العربي، تونس-١٩٩٧م، ص٥٣.

(18) Barnet, R.D.,Assyrian Palaces Reliefs in British Museum,London-1970P.34:Frankfort،H.,the Art and the Architecture of the Ancient Orient,London-1969،P.107.

(١٩) سليمان: موجز تأريخ العراق السياسي، ص٢٥٤.

(20) Omsted,A.T History of Assyria,Chicago-1962,P.256

(٢١) رو، جورج: العراق القديم، ترجمة حسين علوان، بغداد -١٩٨٤م، ص٥٣٦-٥٣٧

(٢٢) باقر ،طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط١، بغداد -١٩٧٣م ،١، ٥٥٦-٥٥٧، ص٩٠-٩١. وللمزيد من التفاصيل عن النصوص الاقتصادية الخاصة بهذه الفترة ينظر:

Pinches, T.G.، Neo-Babylonion and Ach-aemenid of Economic Texts .ed. finkel, I.L., London,1982.

(٢٣) رو: المصدر السابق، ص٥٢١-٥٢٢ ، ولمزيد من التفاصيل من اعمال نبوخذنصرالثاني العمرانية ينظر: محمد، حياة ابراهيم: المصدر السابق، ص٩٥ وما بعد وعن اعمال نبونائيد العمرانية غزالة، هديب حياوي عبد الكريم، الدولة البابلية الحديثة والدور التاريخي للملك نبونائيد في قيادتها، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد ص٢٠٣ وما بعدها.

(٢٤) ساكز، هاري: عظمة بابل، ترجمة عامر سليمان موصل -١٩٧٩ م، ص٣٠٦.

(٢٥) رو: المصدر السابق، المصدر السابق، ص١-٥٣٦.

(٢٦) رو: المصدر السابق، ص٥٣٧-٥٣٨؛ باقر: المصدر السابق، ص١-٥٥٨

(٢٧) الميديين: لقد ورد اول ذكر للميديين في نصوص الملك الاشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق.م) عندما قام بحملات تأديبية عليهم في منطقة قزوين من اجل كبح جماح القبائل التي كانت تهدد الجناح الشرقي للدولة الاشورية، ينظر:

Luckenbill,D.D.,Ancient Recoreds of Assyrain and Babylonia New-York,1926 -1927: Vol .1,p.581, Daniel، D. G.,The Meades and Persians ، London -19, .5,p.41-46

(٢٨) الجدير بالذكر ان الفرس كانوا اصلا احدى القبائل الهندوآرية المهاجرة التي استقرت اخيراً في عيلام وقد اسست عائلتهم المالكة في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، بعد ان قضى اشور بانيبال على مملكة عيلام اخمينس(حا خمانيش) وقد دفع ارتفاع شأن قوة مملكة فارس الملك الميدي استيا جز ان يزوج ابنته من قمبيز الاول ومن هذا الزواج ولد كورش، ينظر:Daniel: Op.cit, p.49-50

(٢٩) باقر: المصدر السابق، ص٥٥٨-٥٥٩ عن نص الرسالة ينظر: ABAB:, vol.26 . P.659

(٣٠) الهاشمي، رضا جواد: «تاريخ منطقة البصرة

القديـم» مجلة دراسـات في التاريخ والاثـار، العدد٤، ١٩٨٢م، ص١١٢.

(٣١) باقر: المصدر السابق، ص٥٥٨.

(٣٢) رو: المصدر السابق، ص٥٣٨.

(٣٣) رشيد، فوزي: الشرائع العراقية القديمة، بغداد- ١٩٨٧م، ص٤٠ اوتـس، جون: بابـل تاريخ مصور، ترجمة سـمير عبد الرحيم الجلبـي، بغداد -١٩٩٠م، ص٢٠٢ .

فالموقف السـلبي لرجـال الديـن من نبونائيـد يعود للسياسة التي انتهجها نبونائيد مع رجال الدين حيث حـاول ان يجعل مـن حران ومن الهها «سـين» بديلا لبابـل والهها مـردوخ وحدد السياسـات الاقتصادية للمعابـد ممـا اثـار حفيظة الكهنـة عليـه، ومما زاد في تفاقـم الامـر ان غياب الملك نبونائيـد عن بابل لمدة عشر سـنوات قد ادى الى توقف اشهر واهم الاحتفالات الدينيـة في البلاد وهي احتفالات رأس السـنة (اكيتو) المكرسة للاله مردوخ اله بابل الرئيسي وقد عبر الكهنة عـن نقمتهم بشـكل علمـي وذلك بالاتصـال لكورش الثاني ودعوته على مايبدو للقدوم الى مدينتهم، ينظر: Pritchard،J;Antient Near Eastern Texts Relating to the old testament (ANET)، Newjersy – 1960,P.321f

(٣٤) باقر: المصدر السابق، ص ١ ،٥٥٨ –٥٥٩.

Haerinck,E.،"Babylonia under Achaemenid Ruler "in esopotamia and Iran in Persian Period and Imperialiasm 539-331B.C،ed.Curtis,J.,London–1997, p.27-28.

(٣٥) غزالة: المصدر السابق، ص١٢٨، ١٣٤سليمان، عامر: «النظم المالية والاقتصادية الاصالة والتاثير» في العراق في موكب الحضارة، بغداد. ١٩٨٨م، ص.

(36) Dubberstein ,W. H.," Comparative price In Later Babylonia "American Journal of Semitic Languages and Litterateur Chicago-1930,Vol.LVT,P.20-43.

(٣٧) سـليمان: موجـز تأريـخ العـراق السـياسي، ص٢٥٤.

(٣٨) ينظـر: Pritchard, J; Antient Near Eastern Texts Relating to the old Testment (ANET)، Newjersey-1960,p.321ff

(٣٩) مارغريـت روثـن: تأريـخ بابل، ترجمـة زينة عازاروميشـال أبي فاضل، ط٢، منشـورات عويدات، بيروت-باريس- ص،١٣١.

(40)Albright،W.F.,"the Nebuchadnezzar and Neriglissar Chronicles",No.143,. Bullentin of American School of Orient Research،Baltimore-1956,P.129

(٤١) باقـر: المصـدر السـابق، ١/ ٥٥٧-٥٥٨؛ رو: المصدر السابق،ص٥٣٦؛ساكز: المصدر السابق،ص٣٣٤ .

(٤٢) باقر: المصدر السـابق، ١/٥٥٣، ساكز: المصدر السابق، ص٣٠٦.

(٤٣) مرعي: المصدر السابق، ص٣٥؛

(٤٤) السعيد: المصدر السابق، ص٢.

(45)ANET:P.363

(46) Gadd:Op.cit،P.85

(٤٧) السعيد: المصدر السابق،ص٣-٤

Grason,Ass rian and Babloia Chronicles,p.106-108

(٤٨) غزالة: المصدر السابق، ص١٥٤؛ رشيد، صبحي أنور: «الملك البابلي نبونائيد في تيماء»، سـومر، م٣٥، العدد ١-٢، بغداد-١٩٧٩، ص١٦٩-١٧١.

(٤٩) رشـيد، صبحـي انـور: «العلاقـات بـين وادي الرافديـن وتيمـاء» في دراسـات في تاريـخ الجزيـرة العربية، الرياض -١٩٨٤، ص٣٨٨ .

(50) Gadd: opcit, p.85

(٥١) غزالـة : المصـدر السـابق، ص ١٥٤ – ١٥٦ ؛

غالب: المصدر السابق، ص ١٥٧.
Gadd: opcit, p. 81; Ephe'l: Ancient Arabs .opcit, p. 186
(٥٢) ساكز: عظمة بابل المصدر السابق، ص ٨٧٨ .
(٥٣) ساكز: عظمة بابل المصدر السابق، ص ١٧٨ – ١٧٩؛ غزالة: المصدر السابق، ص ١٨١ – ١٨٢؛ غالب : المصدر السابق، ص ١٨١- ١٨٢، وللمزيد من التفاصيل عن اليهود في شبه الجزيرة العربية ينظر، العقيلي، ارشيد: اليهود في الجزيرة العربية، ط١، عمان- ١٩٨٠م.
(٥٤) رشيد: الملك البابلي، المصدر السابق، ص ١٧١؛
Gadd: opcit., p. 86–87.
(٥٥) طومسون: المصدر السابق، ص ٢٣٧؛
ANET: p. 562–563.
(٥٦) السعيد: المصدر السابق، ص٦١.
Gadd,the Harran ,p62.
(57)Gadd,the Harran ,p62.
(٥٨) ساكز : المصدر السابق ، ص١٧٧؛ أوتس: المصدر السابق، ص٢٠٣.
(٥٩) السعيد: المصدر السابق، ص٦٣-٦٤.
(٦٠) روثن: بابل المصدر السابق، ص٥١.
(٦١) المصدر نفسه.
(٦٢) سليمان: العراق في التأريخ القديم، ص٢٥٦.
(٦٣) روثن: بابل المصدر السابق، ص٥١.

The fall of the city of Babylon under the reign of King Nebonaide the last kings of the modern Babylonian state:

Dr. prof. Abtahal Adel Ibrahim Al – Tai

Abstruct

The economy of each States lifeblood, whenever economically stable State reflected positively and political institutions and became her weight and the weight of the political, but economic crises and obstacles may occur, it causes that aggravate the situation and conditions of major reasons coupled with secondary causes and taught wood shop this very last factors of collapse that occurred in the reign of the last Kings of the Babylonians is King Nebonaide (539-555 BC) where he has yet to face his inner turmoil that occurred after the death of King Nebuchadnezzar II, Internal turmoil and confusion had been limited to two economic and religious first second.